فالكتاب يعرض وجهة نظر تبدو بوجه عام حيادية تماما بالنسبة للفلسطينيين والعرب . بل ان آراء المؤلفة تتعارض بشكل واضح مع آرائنا حول الكثير من القضايا الاساسية والجوهرية . فهي ، بادىء ذي بدء ، تنطلق في بحثها كله من التسليم ببقاء اسرائيل وبضرورة بقائها . تقول ، على سبيل المثال : « مما لا ريب فيه انه لا يوجد ثمة حل الى ان يحل اولا مأزق الفلسطينيين بطريقة لا يعتبرها اليهود خطرا يهدد بتفكيك اسرائيل » (ص ١٥ — ١٦) . ومن البديهي القول ان هذا الموقف يتعارض تماما مع موقف الفلسطينيين العرب ، وبالتالي فان كل رأي او تحليل يرتكز عليه هو خاطىء ومرفوض بالنسبة لنا . فليس مستغربا ، والحال هذه ، ان فيرغوسون لا تتبنى وجهة النظر الفلسطينية قط ، ايضا ، حول تصور المقاومة للحل المتمثل في اقامة دولة ديموقراطية علمانية في فلسطين ، وحول اعتبار الصهيونية شرا بحد ذاتها ، نظرا لما تنطوي عليه من عنصرية وغطرسة وفاشية واغتصاب . وهي ، بالفعل ، تبدي اسفها (ص ٩٩) لكون المدارس التي تديرها فصائل المقاومة « تشرب » اولادها « الى حد كبير الافكار المناهضة بعنف للصهيونية » . وكان بود الفلسطيني ان يسأل المؤلفة لماذا تعتبر انه امر يؤسف له ان يشرح لاولاده حقيقة الحركة التي شردته واضطهدته وارادت وتريد ابادته كشعب . لكن فيرغوسون توجه كتابها لابناء الغرب بالدرجة الاولى ، وما يزال الموقف المعادي للصهيونية ولاسرائيل موازيا للاسامية في نظر الكثيرين من ابناء الغرب . لذلك فانها ، كالكثير غيرها من الكتاب الغربيين الذين لم يعودوا مستعدين للقبول بالاراء والاساطير والاكاذيب التي تبثها الدعاوة الصهيونية دون استقصاء وتمحيص وتحليل ، تجتهد اكثر من اللازم لكي لا يبدو انتقادها لبعض اوجه السياسة الاسرائيلية والصهيونية موقفا لاساميا عنصريا .

وهكذا فانها ، اذ تنتقد اسرائيل والصهيونية ، ترى لزاما عليها ان تنتقد ايضا الفلسطينيين والعرب . ولا شك في ان بعض انتقاداتها الموجهة للعرب محقة ولا مجال لنكرانها . فهي تروي بعض الحقائق القاسية والمريرة المتصلة باساءة معاملة النازحين الفلسطينيين في بعض الاقطار العربية والمتعلقة بالاتصالات التجارية والسياسية السرية — التي جرت بين بعض العرب واسرائيل — وبعض هذه الحقائق لم يجرؤ العرب انفسهم على فضحها او اعلانها . الا انها توجه انتقادات اخرى لا يمكن فهمها البتة لعدم استنادها الى اية ادلة او شرح . فهي تقول (ص ٩٢) ان الشقاء البشري الذي قاساه النازحون الفلسطينيون « قد استغل لاغراض سياسية ، احيانا من قبل الفلسطينيين انفسهم ، رغم صعوبة تصديق هذا الامر » . ولكنها لا تقول لنا ماذا تقصد بالضبط ، ولا كيف استغل الفلسطينيون شقاء الفلسطينيين ، كما انها لا تسمي هؤلاء الفلسطينيين ولا تشير اليهم حتى من طرف بعيد . وعلى هذا يبقى الانتقاد مرفوضا ، وغير مفهوم .

كما انها تردد بعض الافكار التقليدية المحببة للغربيين بنوع خاص ، كقولها (ص ٥٥) ان الملك الاردني الراحل عبد الله « برز بوصفه اكثر الزعماء العرب اعتدالا واوسعهم مخيلة ، وهما صفتان مميزتان كانت عائلته دائما تكره على تحمل الالام بسببهما » . ولماذا تعتبره « اكثر الزعماء العرب اعتدالا واوسعهم مخيلة » ؟ لانه اجتمع فعلا بغولدا مئير عام ١٩٤٧ ، يوم تسللت عبر نهر الاردن متخفية في زي امرأة عربية ، ثم عام ١٩٤٨ ، حيث اتفق والزعيمة الصهيونية على ان عدوهما المشترك هو المفتي الحاج امين الحسيني. واذا كان الملك عبد الله هو عنوان الاعتدال والمخيلة الواسعة ، في نظر الكاتبة الغربية ، فمن الطبيعي ان يكون الحاج امين والحسينيون رمزا للتطرف في نظرها ايضا . وواضح انها تعتبره متطرفا لوقوفه موقفا برفض المساومة والتسوية مع العدو الصهيوني . والحقيقة هي ان الكاتبة لا تفهم ، ولا توضح كفاية ، ان الفلسطينيين والعرب ما كان باستطاعتهم ، ولا من مصلحتهم ، التصرف « كمعتدلين » بمعنى القبول بحل وسط او بالتقسيم ، لا عام ١٩٤٨ ولا اليوم . ويبقى صحيحا القول ان ما تعتبره الكاتبة ، ومن تمثلهم من الغربيين الداعين الى حل وسط ، « اعتدالا » هو في نظر الفلسطينيين خيانة واضحة . وفي الواقع ، تعرب الكاتبة (ص ١٣٣) عن حزنها لكون « الفلسطينيين الاكثر تطرفا سيقفون دوما على الارجح ، في المستقبل المنظور ، في طريق